الفصل الثالث

صور المسئولية

وفيه مقدمة الفصل ومبحثان:

المبحث الأول:المسئولية الدينية

وفيه تمهيد ومطالبان:

المطلب الأول: مسئولية الإنسان أمام اللّه عز وجل.

المطلب الثاني: العلاقة بين المسئولية في الحياتين الدنيا والآخرة

المبحث الثاني:المسئولية الخلقية.

obeikandi.com

مقدمة الفصل

إن لكل شيء أقساما توضح التنوع والتخصص فيه حتى يستطيع الإنسان دراسة الأمر عن طريق كل قسم على حدة ليستطيع أن يحدد أسس التقويم من خلال كل قسم وأن يعالج مواطن الخلل وينمى مواطن النجاح فيه، وأقسام المسئولية عديدة ولكني سأكتفي بتناول ثلاث منها وهي المسئولية الدينية، والمسئولية الخلقية والثالث المسئولية المجتمعية.وسوف أتناول في هذا الفصل المسئولية الدينية والمسئولية الخلقية أما النوع الثالث وهو المسئولية المجتمعية فسوف أفرد له فصلا كاملا لأنه هو صلب الموضوع وهو النوع الذي يحتوي النوعين السابقين.

المبحث الأول

المسئولية الدينية

وفيه تمهيد ومطالب:

تمهيد:

المسئولية الدينية: تعني القيام بالواجبات والتكاليف التي أمرنا الله بها وفق ما شرع لنا عملاً، وقولاً، وخلقاً، وسلوكاً، وتطبيقها على الوجه الصحيح سراً، وعلانية، وأداء الغاية التي خلقنا الله لها قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}([1])، لعلمه بأنه سيلقى الله ثم يسأله عنها يوم لا ينفع مال ولا بنون، فالمسؤولية هنا هي أن نحاسب أنفسنا على عباداتنا صلاتنا وصيامنا وزكاتنا كيف أديناها؟ وهل قبلت أم لا؟ عندما قرأت عائشة رضي الله عنها قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} ([2]) قالت:" يا رسول الله هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال صلى الله عليه وسلم:"لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصمون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم".([3]) ولذلك من أفضل الأمور التي ينبغي على كل إنسان أن يغرسها في النشء تعظيم هذه المسؤولية قال تعالى:{يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}([4])

---

[1]) سورة ق:56.

[2]) سورة المؤمنون:60.

[3])رواه الإمام احمد والترمذي وصحيح سنن ابن ماجة برقم(4198))

[4]) سورة التحريم:6.

المطلب الأول

مسئولية الإنسان أمام الله عز وجل:

قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}([1])

لقد خلق الله الإنسان وأعطاه العقل الذي هو مناط التكليف وهدى الإنسان طريق الخير وحذره من طريق الشر وبعد أن كلفه بتعاليم دينه التي وضحها على لسان نبيه كان لابد بعد ذلك من السؤال على هذه التكاليف.

وقد ذكر جمهور المفسرين أن الأمانة تعم جميع وظائف الدين، وأن جميع الأقوال في تفسير قول الله تعالى:{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الإنسان}([2]) متفقة وراجعة إلى أن الأمانة هي التكليف وقبول الأوامر والنواهي.

يقول الدكتور عبد الله دراز:إنّ حمل هذه الأمانة يعني مسئولية الإنسان عنها واستعداده لتحمل نتائجها وقبوله بمبدأ الثواب والعقاب المنوطين بها، أمّا السموات والأرض والجبال المشار إليها في الآية الكريمة فلا تعدو وظيفتها أداء الدور الذي خلقها الله لتؤديه بطريقة عفوية، وعلى نسق واحد «وليس هناك أي تدخل ممكن لمبادرتها الخاصة، لا من أجل صيانة النظام الثابت، ولا من أجل تغييره، أو تعديله في أي صورة ما كان، وإذن فلا مسئوليّة مطلقا.([3])

ويقول أيضا الدّكتور دراز: أما في النظام الأخلاقي، فالأمر بالعكس حيث يواجه الفاعل (وهو هنا الإنسان) إمكانات متعددة، يستطيع أن يختار من بينها واحدة، توافق هواه، سواء احترم القاعدة (الأخلاقيّة) أو اخترهما، وعلى ذلك فإنّ الإمكان والضرورة هما الصفتان اللتان

---

[1]) سورة المؤمنون:115.

[2]) سورة الأحزاب:72.

[3]) دستور الأخلاق في القرآن الكريم ، ص، 138.مرجع سابق.

تكونان مجال المسئولية أو عدم المسئولية ([1])وجانب الإمكان هو الذي رصد له الإنسان استعداده.لقد أبرز القرآن الكريم هذا التباين الذي يضع الإنسان العاقل.([2])

في مقابل الكائنات غير المزودة بالعقل من حيث مقدرتها الأخلاقية، وذلك قول الله تعالى {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ..... الآية}([3])، والحمل هنا يعني في رأي أكثر المفسّرين- تحمل التكاليف، كما في قوله عز وجل:{عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ..}([4])

أو قوله سبحانه {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ}([5]) ، وعلى هذا التفسير يكون المراد بالإنسان جنس الإنسان عامة كما قال النيسابوري وغيره. ([6])

أما المعنى الآخر للحمل وهو تحمل الخطأ أو الوزر- وهو أيضا معنى وارد، وقال به بعض المفسرين، فإنّه يحصر الإنسان في الكافر أو المنافق (أو قابيل)، خاصة. ([7])

وقد لخص الشيخ دراز وجهة من قال بذلك من المفسرين فقال: المعنى: مع أنّ المخلوقات الأخرى قد وفت بمهمتها حين خضعت للقانون الكوني (الذي خلقها الله عليه) دون اعتراض أو مقاومة:{قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ}([8]) ، فإنّ الإنسان الذي لم يطع القانون الأخلاقي:{أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى ... الآية}([9]) يبقى محملا به وعلى ذلك فالأمر لا يتعلق بالإنسان بعامة، بل بالكفار والعصاة وحدهم، وقال- رحمه الله تعالى- معقبا على هذا التفسير: وهو تفسير- لا ريب معقول، في ذاته، ولكنّه فضلا عن ذلك التقييد الذي يفرضه على مفهوم الإنسان الذي جاء غير محدد في النص، فإنّه لا يحدد على وجه الدقة التطابق

---

[1]) والمقصود بذلك أن الإمكان يشكل مجال المسئولية بالنسبة للإنسان المكلف، والضرورة تشكل مجال عدم المسئولية بالنسبة للمخلوقات الأخرى غير المكلفة كالأرض والجبال إلخ.

[2]) وقد جعل بعض المفسرين الأمانة هي العقل حيث به تتحصل معرفة التوحيد وتجري العدالة.

[3]) سورة الأحزاب:72.

[4]) سورة النور:54.

[5]) سورة الجمعة:5. دستور الأخلاق في القرآن ص،(138)

[6]) تفسير النيسابوري للآية الكريمة ح 22 ص 35 (بهامش الطبري) وتفسير ابن كثير 3/، 532.

[7]) انظر تفسير القرطبي 14/، 255.

[8]) سورة فصلت:11.

[9]) سورة الأعراف:172.

بين الأسماء والضمائر التي ترجع إليها، ولم تعد الأمانة المعروضة كما هي وصار من اللازم اللجوء إلى فكرة بعيدة حتى يتقرر للكائنات غير العاقلة نوع من الالتزام أو المسئولية.

المطلب الثاني

العلاقة بين المسئولية في الحياتين الدنيا والآخرة

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين المسئولية في الدارين لأن المسئولية في الدنيا هي نتيجة لازمة لعلاقة المسئولية في الآخرة وتتطابق معها.

وهي الحلقة التي تربط بين مواقف الإنسان في الدنيا والآخرة وتجعلهما طورين متعاقبين من الابتلاء والجزاء.والمسئولية الدينية في الدنيا دوائر وميادين بعضها أكبر من بعض. وهي تبدأ بالفرد وتنتهي بالإنسانية كما يلي:-

1) مسئولية الفرد عن نفسه وعن ما منحه الله من قدرات عقلية وسمعية وبصرية وجسدية ونفسية ليستعملها فيما خلقت له طبقا لأوامر الله ونواهيه.

2) مسئولية الفرد عن أسرته وتشمل مسئولية الوالد عن الأبناء والبنات، ومسئولية الولد عن الوالدين، ومسئولية الزوجين كل عن الآخر.

3) مسئولية الأرحام بعضهم عن بعض.

4) مسئولية الفرد عن الأمة، ومسئولية الأمة عن الفرد فيما يزيد في تقدم الأمة ويحفظ مقدراتها وأمنها، وفيما يوفر للفرد العيش الكريم والأمن والاستقرار، ويتفرع عن هذه المسئولية فروع عديدة مثل مسئولية الحاكم عن الشعب، والقوي عن الضعيف، والغني عن الفقير.

5) مسئولية الجيل عن الأجيال اللاحقة في إعدادها لمتطلبات حياتها عقائديا واجتماعيا واقتصاديا وكل ما يساعدها على عبور مستقبلها بنجاح.

6) مسئولية الأمة عن الأمم.

7) مسئولية الإنسان عن المخلوقات باعتباره خليفة الله في الأرض، وأن المخلوقات كلها عيال الله وأحبها إلى الله أبرهم بعياله. وتتسع هذه المسئولية حتى تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد.([1])

[1]) فلسفة التربية الإسلامية بتصرف يسير، ص 201 وما بعدها.

obeikandl.com

أما المسئولية في الآخرة فهي مسئولية فردية يتحمل فيها الإنسان بمفرده نتيجة عمله دون تأثير على الآخرين من حيث الثواب أو العقاب، يقول تعالى: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى}([1]) ، ومما لا شك فيه أن إضلال الآخرين أو هدايتهم يقع في إطار هذه المسئولية الفردية يقول المصطفي عليه الصلاة والسلام مقررا ذلك: «من سنّ خيرا فاستن به كان له أجره، ومثل أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئا، ومن سنّ شرّا، فاستن به كان عليه وزره، ومثل أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئا».([2])

المبحث الثاني
المسئولية الخلقية

حالة تمنح المرء القدرة على تحمل تبعات أعماله وآثارها، ومصدرها الضمير.

وكل مسئولية قبلناها، وارتضينا الالتزام بها فهي مسئولية أخلاقية بدليل:

أ– أنّ القرآن يقدم المسئولية الدينية ذاتها في صورة أخلاقية محضة حين تحايل بعض الناس على التخلص من بعض تعاليم الصوم سرا:{عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ}([3])

ب– أنّ القرآن لا يكتفي بتذكير الناس في كثير من الأحيان بالأمر الإلهي، وإنّما يذكرهم بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم، يقول الله تعالى: {وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}([4])

وقوله تعالى:{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ}([5]) وكل مسئولية تفترض الإلزام سلفا ويتبعه جزاء، ومعلوم أن الإنسان مكلف، والأخلاق الإسلامية قائمة على التكليف، ويعني هذا أن الأخلاق الإسلامية قائمة على المسئولية التي تلزم الإنسان بالعمل الخلقي، وتعني المسئولية

---

[1]) سورة النجم:39- 41.

[2]) صحيح الجامع للترمذي برقم(6014)

[3]) سورة البقرة:178.

[4]) سورة الحديد:8.

[5]) سورة المائدة:7.

«تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله»([1])

وتقوم المسئولية على الحرية، ولا يكلف بها مجنون، وتسقط عن صاحب الإرادة المسلوبة، ويشترط في المسئولية الكاملة أن يكون هناك نص ثابت يأمر بالفعل أو بالترك، وأن يكون المسئول كامل الأهلية، ومعنى هذا أن المسئولية الخلقية تقوم على مبدأ الالتزام الخلقي.

وقد ثبت أن الإنسان لديه أهلية للقيام بهذه المسئولية، والقيام بها شرف للإنسان، وعلى هذا نجد أنفسنا أمام أنواع من السلطة التي تحدد المسئولية، وهي:

1) سلطة داخلية، أي إلزام الفرد نفسه بإرادة وقصد وتصميم، وهناك العزم على فعل شيء وهذا كاف لتحمل مسئولياته إن خيرا فخير وإن شرّا فشر.

2) سلطة خارجية، أي إلزام من خارج النفس، كأن يتلقى المسئولية من أناس آخرين، أو من سلطة أعلى.

وأيا كان الأمر، فإن الإنسان يكون مسئولا أمام نفسه، أو أمام الآخرين (الإنسان والمجتمع) أو أمام الله، هذا ما يعنيه التقسيم السابق، ومع هذا فإن الإنسان يظل مسئولا عن كل شي ء أمام الله تعالى.

والمسئولية الأخلاقية المحضة هي ما تقابل الالتزام الذاتي من الإنسان نفسه على الإتيان بشيء أو الانتهاء عن فعل شيء، والمسئولية الاجتماعية هي ما تقابل الالتزام تجاه الإنسان وما يفرضه المجتمع من قواعد، أما المسئولية الدينية فهي ما تقابل الالتزام أمام الله تعالى. ولعله من الضروري الإشارة إلى أن كلا من المسئولية الأخلاقية والمسئولية المجتمعية إنما هما مسئولية دينية، وفي الوقت ذاته هي مسئولية خلقية، إذ أنه على حد قول (دراز): «فالمسئولية التي يحملنا إياها غيرنا تصبح بمجرد قبولنا لها مطلبا صادرا إليه شخصنا. وإذا فليس من المستغرب أن نرى القرآن يقدم لنا المسئولية الدينية ذاتها في صورة مسئولية أخلاقية محضة حين يقول بمناسبة بعض التعاليم المتعلقة بالصوم المفروض، وقد تحايل بعض الناس على التخلص منه سرا: {عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ}([2])

---

[1]) التربية الأخلاقية الإسلامية، المؤلف:مقداد يالجن،الطبعة الأولى،الناشر:دار علم الكتاب الرياضة، ص 331 (بتصرف).

[2]) سورة البقرة: 187.

وفي كثير من الأحيان لا يكتفي الكاتب، حين يستحث المؤمنين إلى الطاعة بأن يذكرهم بالأمر الإلهي، بل يذكرهم في الوقت نفسه بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم بأن يطيعوا هذا الأمر» اقرأ: {وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ}([1]) وقوله تعالى:{إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا}([2]) ([3])

معنى هذا أن الالتزام الذاتي، والمؤسسات الاجتماعية لا حق لها في إصدار التكليف، والمسئولية، ما لم تكن مفوضة من قبل السلطة الإلهية، ويعني هذا أن الأخلاق مرتبطة بالدين ارتباطا واسعا، ولا يمكنها الفكاك من تعاليمه، وعليه فعلى الإنسان المسلم أن يتحمل مسئوليته الخلقية التي أقرتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويراعي الأمانة بناء على الأمانة التي حملها له القرآن، على أساس من المبادرة الفردية وحفظ العهد، في إطار شرع الله وهذا واجب عليهم.

كما أن عليه أن يتحمل مسئوليته عن التكاليف والأعمال تجاه الآخرين، وذلك انطلاقا من قول الله تعالى:{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}([4])

وذلك في إطار شرع الله، أما إذا كان أي من هذه الأمور مخالفا لما في القواعد الإسلامية مخالفة صريحة، فإن عليه أن لا يأتيها. يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»([5])

أي لا يجب السمع والطاعة في الأمر بالمعصية، قال ابن حجر: «يحرم على من كان قادرا على الامتناع، وفي حديث معاذ عند أحمد «لا طاعة لمن لم يطع الله» وعنده وعند البزار في حديث عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري «لا طاعة في معصية الله» وسنده قوي.([6])

---

[1]) سورة الحديد: 8.

[2]) سورة المائدة: 7.

[3]) دستور الأخلاق في القرآن، المؤلف: محمد بن عبد الله دراز (المتوفي: 1377هـ)،ص 141.

[4]) سورة المائدة: 1.

[5]) سنن أبي داود برقم2626)

[6]) فتح الباري،ابن حجر(ج 13/ 31- 132)مرجع سابق.

وفي مسند أحمد «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».([1])

وعن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، قلنا:" أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم، قال:" دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه. فقال:" فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان»([2])

يقول ابن حجر في قوله: «أن لا ننازع الأمر أهله» أي الملك والإمارة، زاد أحمد عن طريق عمير بن هانيء عن جنادة «وإن رأيت أن لك رأيا وإن اعتقدت أن لك في الأمر حقا فلا تعمل بذلك الظن بل اسمع وأطع إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة» وفي قوله «إلا أن تروا كفرا بواحا» قال الخطابي: معنى قوله بواحا يريد ظاهرا باديا من قولهم باح بالشيء يبوح به بوحا وبواحا إذا أذاعه وأظهره» «وعندكم من الله فيه برهان»: «أي نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل، قال النووي:المراد بالكفر هنا المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم»([3])

وبهذا يتحقق الاتزان حيث يطيع الإنسان المسلم الأوامر المتسقة مع نصوص القرآن والسنة، ولا يتبع ما يخرج عن أوامرهما أو يتعارض معهما.

النوع الثالث من أقسام المسئولية،هو المسئولية المجتمعية وهذا النوع سوف أخصص له فصلا مستقلا كما ذكرت في المقدمة وهو الفصل القادم.

---

[1]) رواه أحمد برقم(122)

[2]) البخاري- الفتح، 13/ 7، حديث رقم 7055، 7056.

[3]) فتح الباري، 13/ 10، 11.